الفصل الأول

حق الحياة البشرية

وينقسم إلى مباحث :

المبحث الأول : تفرد المهمة وأحقية الحياة

المبحث الثاني : الإنسان خليفة الله فى أرضه

المبحث الثالث : الإفساد فى الأرض وسفك الدماء

المبحث الرابع : غاية الشيطان هلاك الإنسان

المبحث الخامس : عمارة الأرض واستبقاء الحياة

المبحث السادس : نعم الله تسبق وجود الإنسان

المبحث السابع : عندما تتصادم المصالح

المبحث الثامن : مقومات الحياة البشرية وقدرات البشر

* * *

حق الحياة البشرية

● **تفرد المهمة وأحقية الحياة :-**

لا ريب أن حق الإنسان فى الحياة ينبع فى الإسلام من مكانته فى هذا الوجود الذي خلقه الله وأعده وسخره لاستقبال هذا المخلوق الفريد الذى أناط به أسمى مهمة أوكلت بمخلوق فى هذا الوجود سواء على مستوى الملائكة أو كل الأجناس الأدنى من جماد ونبات وحيوان. آلا وهى مهمة العبادة بصفة الحب لا بصفة الخلق وقدرة القهر.

فإذا كان الكون كله يعبد الله ويسبحه مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً** ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ** ﴾ [الحج: ١٨] إلا أنها عبادة تنبع من صفة الخلق التى أوجد الله تعالى هذه الكائنات عليها فلا يستطيعون منها فكاكاً أولها تغييراً فهى تثبت لله تعالى صفة القهر والهيمنة. لاسيما وأن هذه الكائنات هى التى اختارت لنفسها هذه الصفة من العبادة والطاعة مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً** ﴾ [الأحزاب: ٧٢]. ولهذا أصبحت تلك الكائنات مقهورة على طاعة الله لأنها رفضت وأبت أن يكون لها اختيار نوعية معتقداتها وسلوكياتها فهى لذلك منضبطة على منهج الله وإرادته لا تغير ولا تبدل فالشمس لا تستطيع أن تقول سأشرق اليوم أو لن أشرق، ولا تستطيع أن تتقدم أو تتأخر عن مواقيتها التى قدرها الله لها وكذلك القمر وكل المخلوقات فى هذا

الوجود ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٣٨ – ٤٠].

ومثل الكون فى ذلك مثل الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ويسبحون الليل والنهار لا يفترون، ومنهم الساجد إلى يوم القيامة والراكع إلى يوم القيامة والقائم إلى يوم القيامة وكل ذلك بصفة الخلق والقهر لا الإختيار.

● **نوع آخر من العبادة :**

.. والله تعالى يريد خلقاً يأتيه عن حب واقتناع لا عن قهر كباقى الكائنات يريد خلقاً قادراً على أن يعصى ولكنه يأتى طائعاً باختياره.. فيقول يا رب جعلت لى شهوة عاجلة.. ولكن حبى لك أكبر وأقوى من كل متع الدنيا. ولهذا تركت هذا كله وجئتك وأنا قادر على ألا أجيء .. جئتك عن حب واختيار لأن اقتناعى باستحقاقك للعبادة أقوى وأكبر من الدنيا وما فيها، وهذا ما يريده الله تعالى من عباده. وإلا لما خلقهم مختارين وقادرين على الطاعة وعلى المعصية ولذلك يقول الله لرسوله ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء ٣ ، ٤] (١).

فالله تعالى أراد أن يخلق كائناً مستقلاً فى إرادته واختياراته كأكمل ما يكون الاستقلال ليأتيه ويعبده عن اختيار ليثبت لذاته تعالى صفة المحبوبية والعظمة بعد أن أثبت لنفسه تعالى صفة القهر والهيمنة، ولذلك نجد أن الإنسان قد اشتمل على كل أضداد الحياة من إيمان وكفر وإقبال على الله وابتعاد عنه، وحب له وبغض واعتراف بنعمه وإنكار لها. بل نجد من بين البشر مَن أنكر وجود

---

(١) وانظر تفسير فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى الآية ﴿ إياك نعبد ﴾.

الله واعترف بالصدفة والعبثية فى إيجاد وتدبير كل هذا الكون العريض الفسيح، ومنهم من ادعى الألوهية فقال لمن حوله: ما علمت لكم من إله غيرى، وادعى الربوبية فقال: أنا ربكم الأعلى ومنهم من أشرك بالله ونسب له الولد وادعى عليه الفقر والبخل ونسب إليه ما استحال فى حقه من صفات، وعلى النقيض من ذلك نجد فى البشر من أفنى وجوده ووجود كل شىء فى وجود الله فاعترف بانه الموجود الحق ولا موجود بحق إلا لله فترك إختياره لاختيار الله وأسلم زمام حركته فى الحياة له سبحانه فأطاعه فى أوامره وإنزجر عن نواهيه وذكره وسبحه مع كونه المسبح فاستقام واستقامت له حياته على منهج الله، وكل ذلك تابع من الصفة التى خلق الله عليها الإنسان وهى صفة الاختيار والقدرة على الطاعة والمعصية.

وقد عبر رسول الله ﷺ عن حرية الاختيار التى منحها الله للإنسان بذلك الحديث الذى رواه البخارى فى أول كتاب الاستئذان أن رسول الله ﷺ قال «خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعاً» وفى رواية «أن الله خلق آدم على صورة الرحمن» (١) قال ابن حجر: والمراد بالصورة والصفة والمعنى أن الله تعالى خلقه على صفته تعالى من العلم والحياة والسمع والبصر والإرادة وإن كانت صفات الله لايشبهها شىء، وهذا إن دل على شىء فيدل على أن الله تعالى أراد أن يخلق كائناً بإرادة مستقلة تمام الاستقلال ليأتيه عن اقتناع نابع من استلهام عظمته وكمال صفاته من بديع صنعه، وهى المهمة التى لا يشارك الإنسان فيها غيره من المخلوقات مما يعمق قيمة حياته ومهمته فى هذا الوجود.

● **الإنسان خليفة الله فى أرضه:**

فإذا تأملنا حديث الحق تبارك وتعالى فى كتابه العزيز مع الملائكة بشأن خلق الإنسان واستخلافه فى الأرض لأدركنا بعمق قيمة هذا المخلوق ولأدركنا كذلك الضمانات التى وضعها الحق تبارك وتعالى لاستبقاء حياته واستمرار وجوده فى هذا الكون.

---

(١) رواه البخارى وقال الإمام أحمد هو حديث صحيح.

ويبدأ هذا الحديث بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠- ٣٣].

فبعد أن أخبر الله تعالى أنه خلق جميع هذا الكون أراد أن يخبرنا عمن خلقه لعمارة هذا الكون وسخره له، وكأنه تعالى يلفت النظر إلى المشيئة العليا التى تريد أن تسلم هذا الكائن الجديد فى الوجود زمام هذه الأرض، وتطلق فيها يده، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق فى الإبداع والتكوين والتحليل والتركيب، وكشف ما فى هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات، وتسخير هذا كله بإذن الله فى المهمة الضخمة التى أوكلها الله إليه وإذن فقد وهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة والاستعدادات المذخورة كفاء ما فى هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات ووهب من القوى الخفية ما يحقق على يديه المشيئة الإلهية، وذلك كى لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون الضخمة وهى منزلة عظيمة، منزلة هذا الإنسان فى نظام الوجود على هذه الأرض الفسيحة، وهو التكريم الذى شاءه الله خالقه الكريم له.

وهذا ما تم بقدر كبير فى الأرض على يد هذا الكائن المستخلف فى هذا الملك العريض ولهذا جاء للملائكة القرار من العليم الحكيم والخبير بمصائر الأمور ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ ﴾ وكأنه تعالى يلفت نظرهم إلى أن مهمة هذا المخلوق فى إطار العبادة والتسبيح والتحميد ستسبق مهمتهم فيها [1]. حتى

---

(١) الظلال جـ١.

يقول مصطفى الله من الملائكة لمصطفى الله من البشر... تقدم أنت فإذا تقدمت أنت اخترقت وإذا تقدمت أنا اخترقت ولكل منا مقام معلوم وذلك لأنهم سيحققون نوعاً من العبادة لا يشاركهم فيه غيرهم وهو عبادة الله بصفة الحب والاختيار مع القدرة على المعصية ومع وجود الشهوة الصارفة والشيطان المحرض.

● **الإفساد في الأرض وسفك الدماء:**

وقول الملائكة «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء» ارتقاء في عظم الذنب فالإفساد في الأرض لا يرتقي في خطره إلى سفك الدماء لأن الإفساد في الأرض على خطره هو مساس بالمستخلف فيه أما سفك الدماء فهو مساس واعتداء علي المستخلف نفسه الذى سخر الله له الكون بكل ما فيه من نعم وآلاء، وأناط به أشرف المهام في هذا الوجود وهي العبادة ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦].

وأيضاً لأن سفك الدماء يمثل إزهاقاً لتلك الروح التي نفخها الله تعالى منه في ذلك المخلوق ليحيا ويحقق مبدأ الخلافة وهو أيضا اعتداء على حق المولى تبارك وتعالى في الإحياء والإماته. كان القاتل يأتي لمن أعطاه الله العمر والحياة ليهدم فيه إرادة الله بقتله ولهذا يقول الرسول ﷺ «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق» (١) وفي رواية النسائي «قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا».

والإفساد في الأرض وسفك الدماء هما الذنبين اللذين استنكرتهما الملائكة من قبل على الجن الذين خلقهم الله قبل الإنسان لعبادته ففعلوا ذلك كما قال عبد الله بن عمر وابن عباس: كانت الجن قبل آدم بألفي عام فأفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء فبعث الله إليهم جنداً من الملائكة فطردوهم إلى جزر البحور»(٢).

---

(١) رواه مسلم.

(٢) ابن كثير – قصص الأنبياء.

ولهذا قالوا: ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك «أى إن كان المراد من الخلق لهؤلاء أن يعبدوك ويقدسوك فها نحن لا نفتر ليلاً ولا نهاراً، فرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾» أى أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هؤلاء ما لا تعلمون.. أى سيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء والصالحون. ثم بين لهم شرف آدم عليهم فى العلم فقال: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾. «قال مجاهد هى أسماء كل دابة وكل شىء فقال الله للملائكة ﴿ **أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾. ثم أمر الملائكة بالسجود لآدم تكريماً له وتعظيماً لشأنه أن خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه. كما قال تعالى: ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ [الحجر: ٢٩] ليتم تشريف الله لهذا المخلوق أربع تشريفات وهى أن خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلمه الأسماء كلها ثم أمر الملائكة بالسجود له.

وعلى كل حال كان صدور أمر الله للملائكة بالسجود لآدم بسبب صنعه إياه بيده أى أن الإنسان كان المظهر التام للقدرة والصنعة الإلهية وفى داخله روح خاصة نفخها الله فيه بنفسه ووضع فيه الصفات التى تتصف بها ذات البارىء تعالى ولكن على نطاق محدود بالنسبة للصفات اللامحدودة والتى تفوق الكمال فهو تعالى ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾.

وسجود الملائكة لأدم جاء بمثابة الإعتراف منهم والإذعان لعلم الله وقدرته وإرادته فى استخلاف الإنسان فى الأرض. لاسيما وأنه قد قبل حمل الأمانة التى رفضت السموات والأرض والجبال حملها ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً** ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ولفظ الأمانة يوضح مفهوم الخلافة ومعناها، وكلا اللفظين يلقى الضوء على وضع الإنسان الصحيح بالنسبة لنظام الكون فهو حاكم الأرض ومسخرها ولكن حكمه لها ليس فى ذاته وأصله بل هو حكم مفوض إليه من قبل الله ومن ثم عبر

الله عن سلطاته المفوضة إلى الإنسان بلفظ الأمانة، وعلى هذا سمى الله من يستخدم هذا السلطات المفوضة إليه من جانبه تعالى «خليفة».

● **غاية الشيطان هلاك الإنسان:**

وفى لحظة تكريم الإنسان والإعلام بقدره تظهر عداوة الشيطان الذى سبقه فى عمارة الأرض وعبادة الله ولكنه فشل فى مهمته وأفسد فى الأرض وسفك الدماء مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** ﴾ [الكهف: ٥٠]. فهو من الجن الذين خلقهم الله لعبادته قبل الإنسان فافسدوا وسفكوا الدماء فارسل الله إليهم الملائكة لينفوهم إلى جزر البحور ويُؤخذ إبليس أسيراً إلى السماء (١). فيحسده ويأبى أن يسجد له مع الساجدين ويسأله الله تعالى: ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٢– ١٧]. وبالفعل استطاع الشيطان أن يغوى آدم ويغريه بالأكل من الشجرة التى نهاه الله عنها ليهبطه الله إلى الأرض لتبدأ خلافته فيها كما أراد له الله ولتبدأ الحياة البشرية على الأرض، وقصة ذلك الصراع الأبدى بين الخير والشر، وبين الإنسان والشيطان ﴿ **فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ**

---

(١) ابن كثير – قصص الأنبياء.

لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأعراف : ٢٠- ٢٤].

● **مدخل الشيطان إلى النفس البشرية :**

وقد لخص الله تعالى فى بلاغة رائعة مدخل الشيطان إلى النفس البشرية حين أورد لنا كيف أغرى الشيطان آدم بمعصية الله حيث تم الإغواء بجملة واحدة حيث قال له: هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى» إذن الإنسان يريد شيئين فى الدنيا. حياة خالدة لا تنتهى ومالاً وفيراً لا يفنى ولا يتأثر بكل ما ينفقه الإنسان مع عدم تأثر عمره بمرور السنوات فهو يريد شباباً دائماً وكنوزاً لا تعد ولا تحصى ومن هنا كان مدخل الشيطان للنفس البشرية. فكل الآلهة الباطلة التى عبدها الإنسان على مر العصور واختلاف الأمكنة كانت إما وهماً دافعة لأذى أو مرض يؤدى إلى الهلاك أو وهماً جالبة للرزق والجاه فى الدنيا. وهى فى مجموعها لا تخرج عن ذلك أبداً. بل إن عبادة الناس للبشر تأتى أيضاً من خلال هذين المدخلين فهو إما أن يرجو رزقاً يستمتع به أو صحة وقدرة تطيل فى عمره (١).

وهكذا فقد أنزل الله الإنسان والشيطان إلى الأرض وجعل لهما فيها مستقراً ومتاعاً إلى حين، ومنذ تلك اللحظة بدأ الشيطان فى مكره وكيده للإنسان ليتسبب فى طرده من رحمة الله كما تسبب فى طرده منها سالفاً. ولشدة مكره وكيده بهم نجد الملائكة يستغفرون للذين آمنوا منهم ويدعون لهم بالمغفرة والرحمة ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [غافر : ٧].

---

(١) تفسير فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى.

ولا ريب أن هدف الشيطان الأسمى هو هلاك ذلك الإنسان إما بالكفر وإما بالكبائر من المعاصى والذنوب وإما بالموت فهو يوقع بينهم العداوة والبغضاء حتى يقتتلوا فيكونوا بذلك قد هلكوا بابتعادهم عن طاعة الله ورضوانه، وبهلاك أعداد كبيرة منهم، وكلا الأمرين هدف الشيطان وغايته ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾ [المائدة : ٩١]. فهو يورد الإنسان الموارد التى يخيل إليه أن فيها منفعته ثم يصدره المصادر التى فيها عطبه وهلاكه ثم يتخلى عنه بعد ذلك ويشمت به ويضحك منه ﴿ **وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [الأنفال : ٤٨].

● **عمارة الأرض واستبقاء الحياة :**

الله تعالى يريد أن تستمر حياة الإنسان فى الأرض ليتحقق مبدأ الخلافة، بإعماره لها على منهج الله، وقد شرح الحق تبارك وتعالى ذلك بقوله: ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ [هود : ٦١]. حيث جعل سبحانه وتعالى الإنسان خليفة له فى أرضه ليعمرها على منهجه، وعمارة الكون تنشأ بالتفكير فى الارتقاء بالصالح فى الكون وعدم الإفساد.، فالصالح فى الكون نتركه صالحاً فإن استطعنا أن نزيد فى صلاحه فلنفعل.. فالأرض تنبت الزرع وإذا لم يزرعها الإنسان فهو يجد زرعاً خارجاً منها، والحق يريد من الإنسان أن ينمى فى الأرض هذه الخاصية فيأتى بالبذور ويحرث الأرض ويزرعها. وهكذا يزيد الإنسان الأمر الصالح فى الكون صلاحاً وهذا كله فرع وجود الحياة.

إذن عمارة الإنسان للأرض تتطلب حياة واستبقاء حياة للخليفة ولا معنى لخلافة الإنسان فى الأرض مع إهمال حياته وعدم رعايتها، وما دام استبقاء الحياة أمراً ضرورياً وحتمياً فلا تأتى أيها الخليفة لخليفة آخر مثلك لتنهى حياته فتعطل

بذلك إعماره للأرض وإحياءه لها فالإنسان مخلوق مكرم من قبل المولى عز وجل فلا تأتى أنت لتهينه أو تعتدى على أخص خصوصياته وهى الحياة، وبهذا نجد أن تكريم الإنسان واحترام حياته نابع من هدف وجوده وغاية خلقه فى هذا الكون.

● **تكريم الله للإنسان: -**

وقد خص الله الإنسان من بين سائر المخلوقات بهذه المهمة وبهذا التكريم الذى عبر عنه بقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وهى آية تلخص ما منحه الله لهذا المخلوق الفريد من مكرمات تسهل عليه مهمته فى هذا الوجود. حيث كرمه على كثير من خلقه بخلقته على تلك الهيئة لقوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ [التين: ٤] وقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ** ﴾ [الإنفطار: ٦، ٧] (١).

كما كرمه بهذه الفطرة التى تجمع بين الطين والنفخة فتجمع بين الأرض والسماء فى ذلك الكيان المتفرد، وكرمه بالاستعدادات التى أودعها فطرته والتى استأهل بها الخلافة فى الأرض يغير فيها ويبدل وينتج فيها ويطور ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة، وكرمه بتسخير القوى الكونية له فى الأرض وإمداده بعون القوى الكونية فى الكواكب والأفلاك، وكرمه بذلك الاستقبال الفخم الذى استقبله فيه الوجود، وبذلك الموكب الذى تسجد فيه الملائكة ويعلن فيه الخالق جل شأنه تكريم هذا الإنسان وكرمه بإعلان هذا التكريم فى كتابه المنزل من الملأ الأعلى، والباقى إلى يوم القيامة «القرآن». ثم يقول تعالى: ﴿ **وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ وقد

---

(١) وانظر الظلال.

استدل بهذه الآية على أفضيلة جنس البشر على جنس الملائكة. قال زيد بن أسلم «قالت الملائكة يا ربنا إنك أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون منها ويتنعمون ولم تعطنا ذلك فأعطنا ذلك فى الآخرة. فقال الله تعالى: «وعزتى وجلالى لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان، وروى الطبرانى أن رسول الله ﷺ قال: إن الملائكة قالت يا ربنا أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة. قال لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان» (١).

● **نعم الله على الإنسان تسبق وجوده :**

وبعد أن خلق الله الإنسان على هذه الهيئة الزاخرة بالطاقات لإعمار الأرض على منهجه وتحقيق العبادة المرجوة، وبعد أن ظهرت العداوة بين الشيطان والإنسان يُهبط الله تعالى الإنسان إلى الأرض ليبدأ خلافته فيها ولكن بعد أن مهدها له وملأها بالنعم. فنحن إذا نظرنا إلى ترتيب الأشياء فى الكون نجد أن نعم الله على الإنسان تسبق وجوده. فالله تعالى خلق السموات والأرض وقدر فيها أقواتها وبارك فيها وعندما نزل الإنسان إليها كانت كل النعم موجودة. بل إن آدم عليه السلام أبا البشر كلهم عندما خلقه الله سبقته الجنة التى عاش فيها لا يتعب ولا يشقى ووجد بها كل شىء متوفراً لحياته ليبدأ الحياة.

وحينما عاش الإنسان على الأرض وجد أشياء تخضع له وتعطيه نعماً بغير قدرة منه وبغير دخولها فى علمه ولا فى قدرته. فلا هو يستطيع أن يُقدم لنفسه هذه النعم ولا هو قادر على أن يدخلها فى قدرته ويسيطر عليها. فالإنسان خُلق فوجد الكون معدا ومسخراً له. الشمس تدفئه وتعطيه الضوء والأرض تطعمه وتعطيه الثمر والمطر ينزل عليه ليسقيه، والهواء موجود فى كل مكان ليتنفسه بسهولة، والليل والنهار حتى يستطيع أن ينام ويستريح ويعمل ويُنتج. كل هذه

(١) رواه الطبرانى وأنظر تفسير ابن كثير والظلال.

النعم وغيرها الملايين التى لا تحصى ولا تعد خُلق الإنسان ليجدها فى الكون وكلها عطاءات ربوبية أى للمؤمن والكافر ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت : ٩- ١٢].

ولهذا عندما يستعرض الحق تبارك وتعالى نعمه على خلقه ليسهل حياتهم يقول : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ وقد جاءت هذه الآية فى القرآن مرتين، مرة جاء فى عقبها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : ١٨] وفى الثانية ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] فسياق الآية الاولى تجليات الرحمة وسياق الآية الثانية جبروت الإنسان العاصى الذى يستغل نعم الله فى معصيته ولذلك قال الحق : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨]، وكما سبق يستحيل حصر أوعد نعم الله التى أسبغها على الإنسان ظاهرة وباطنة لأنها تشتمل على حياة الإنسان بكل ذرة من ذراتها وهى كذلك تملأ جنبات الكون المسخر له من الله.

● **الكون يلائم قدرات الإنسان :**

هذا وقد خلق الله الكون وسخره للإنسان على صورة تحفظ حياته وتسهل عليه تحقيق الغاية التى أوجده الله لإمضائها فى كونه ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٦- ١٨].

فإن كتلة العالم الطبيعية وفق المنظور الإسلامى قد خلقت للإنسان وسخرت له تسخيراً، وقد حقق الله تعالى أبعادها وقوانينها وأحجامها بما يتلاءم وقدرات الإنسان، والمهمة الأساسية لخلافته فى الأرض، وقدرته على التعامل العمرانى مع الطبيعة تعاملاً إيجابياً فاعلاً، ولنتصور كيف يكون الحال على مستوى القدرة على التحضر لو كانت الشمس والقمر على سبيل المثال أقرب قليلاً أو أبعد قليلاً عن موقعهما المرسوم، وإذا كانت الجاذبية أخف قليلاً أو أثقل قليلاً عن شدها المحسوب، ولو كانت مكونات الغلاف الغازى غير ما هى عليه من دقة مُعجزة فى النسب المحددة، ولو كانت مياه البحار والمحيطات خالية من الأملاح والأجواء راكدة الرياح، ومحور الأرض عمودياً وشكلها غير بيضاوى... إلى آخره.

وكان إرادة الله قد شاءت أن تخلق الكون بهذه الدقة المعجزة لكى يُحقق الإنسان المدى الأقصى الذى يحقق خلافته فى الأرض. ولم يشأ الله تعالى فى نفس الوقت أن يمهد له العالم تمهيداً، ويكشف له عن قوانينه وأسراره بالكلية لأن هذا نقيض لعملية الإستخلاف والإبداع التى تتطلب مقاومة وتحدياً ودأباً وإبداعاً، ولأنه يقود الإنسان إلى السلبية المطلقة والكسل التام. كما أن الله تعالى لم يشأ من جهة أخرى أن يجعل العالم على درجة من التعقيد والصعوبة والإنغلاق والغموض يعجز معها الإنسان عن الاستجابة والإبداع. الأمر الذى يتنافى أيضاً ومهمته الحضارية التي أنيطت به كخليفة لله فى الأرض جاء لإعمار عالمٍ غير مقفل ولا مسدود ﴿ **وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ * وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ [الشورى ٢٧ - ٣٠] (١).

(١) وأنظر عماد الدين خليل - حول إعادة تشكيل العقل المسلم.

● **عندما تتصادم المصالح :**

ولا شك أن هذه النعم وهذا الإعداد الذى اشتمل جنبات الكون كان فى حد ذاته اختباراً وابتلاءً للإنسان حينما تتشابك مصالحه مع مصالح غيره من بنى البشر. فكيف سيتعامل حينما تتضارب مصالحه مع مصالح غيره؟ وكيف سيتعامل عندما يشعر بالغنى والقدرة على التحكم فى مقدرات غيره؟ أجل.. فهل سيطغى ويتجبر ويتعامل وفقاً لقانون الغاب الذى يبيح لمعتنقه أن يفعل كل ما يستطيع عمله دون قيد من دين أو خلق حتى يقول القائل:

ومن لم يزدعن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يَظلم الناس يُظلم؟

أم أنه سيتعامل وفق مبادىء الدين والعقل والأخلاق والذى يقضى على الإنسان بأن يفعل ما يحق له عمله، وأن يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به. فإن أراد من الناس الاحترام فعليه أن يقدمه أولاً، وإن أراد من الناس أن يحافظوا على ماله فلا تمتد إليه أيديهم وعلى عرضه فلا تتطاول عليه ألسنتهم ولا تمتد إليه أبصارهم. فعليه أولاً أن يحافظ على أموال الناس وأعراضهم، وإن أحب من الناس أن يحافظوا على روحه وحياته فلا يبسطوا إليها أيديهم بالاعتداء فعليه أيضاً أن يحافظ على حياتهم وأرواحهم. فالدين والأخلاق إن كانا يقيدان حرية الفرد عن الاعتداء على المجتمع فإنهما كذلك يقيدان حرية المجتمع عن الاعتداء على حقوق الفرد، والفرد فى هذه الحالة هو الرابح. لأن الدين حمى المجتمع منه وهو فرد واحد ولكنه حماه من المجتمع كله ﴿ **وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً** ﴾ [الفرقان: ٢٠].

ولهذا يأتى رجل إلى رسول الله ﷺ ويقول له: يا رسول الله إنى أعاهدك على الإسلام ولكنى رجلٌ أحب الزنا فأبحه لى. فيهم سيدنا عمر رضى الله عنه أن يبطش بذلك الرجل الذى تفوه بقول ما كان له أن يتفوه به فى بيت الله وبين يدى رسول الله. فيقول له رسول الله ﷺ على رسلك يا بن الخطاب. ثم يبدأ فى

معالجة ذلك الرجل بأسلوب الطبيب الماهر الحاذق الذى يعرف كيف يتعامل مع النفوس وملكاتها لاسيما وأنه الرسول الرحمة . فيقول للرجل وقد أدناه منه حتى مس فخذه فخذ النبى ﷺ : يا أخا العرب هل تحب أن يُفعل هذا بأمك؟ قال الرجل: لا . فكرر عليه النبى ﷺ : هل تحب أن يُفعل هذا بأختك؟ فقال الرجل: لا . فأعاد عليه الثالثة: هل تحب أن يُفعل هذا بزوجتك فقال الرجل وقد أخذته حدة الغيرة: لا . لا . لا . فرد عليه الرسول ﷺ بقوله: وكلنا هكذا يا أخا العرب. لا نحب أن يفعل هذا بأمهاتنا أو أخواتنا أو زوجاتنا . فقام الرجل من بين يدى رسول الله ﷺ وهو يقول: فقمت من بين يدى رسول الله ﷺ وليس شيئاً أبغض إلى نفسى من الزنا، وذلك لأن الرسول دعاه إلى الخير والفضيلة بدراية كاملة بملكات نفسه التى لا تقبل السوء لأهل بيتها بأى حال من الأحوال.

كما وضح له أن الدين وهو يقيد حريته عن أعراض الناس وحرماتهم يقيد فى نفس الوقت حريات جميع أفراد المجتمع نحو عرضه وحرماته لأنه إن تركه يعبث ويعيث انجلالاً وانحرافاً فى أعراض الناس وحرماتهم فلسوف يترك الجميع يعبثون ويعيثون فى ذات اللحظة فى عرضة وحرماته حتى يتحقق مبدأ العدل بين الجميع، وهو ما لا يرضاه، ولهذا يقول: فقمت من بين يدى رسول الله وليس شيئاً أبغض إلى نفسى من الزنا.

إلا أن صفة العدل ومعاملة الناس بالفضل هذه لا تظهر بوضوح إلا عندما يملك الإنسان شئون غيره ويتحكم فى مصائرهم. فهل هذا الملك وهذا التحكم سينسياه دينه وعدله فى معاملة الناس أم لا؟ ولهذا يصف الحق سبحانه وتعالى المؤمنين عند تحكمهم بقوله ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ [الحج: ٤١] (١).

---

(١) وانظر تفسير الشعراوى عليه رحمات الله.

● **الخضوع للمنعم:**

وكذلك يربى الحق الإنسان المؤمن على احترام الكون بكل أجناسه، وتقدير النعم لأن ذلك مظهراً من مظاهر معرفة المنعم وتقدير عطائه وأحرى بمن يحترم النعم ويعرف المنعم أن يعدل مع إخوانه من البشر فلا يعتدى على حقوقهم، ولا يتجبر عليهم، ولا يتكبر فى كون الله بغير حق. فالله تعالى سخر له الزمان والمكان وكل أجناس المخلوقات فى الكون. فالحيوان مسخر له وكذلك النبات والجماد، ولهذا يريد الله تعالى أن يُعلم الإنسان أنه هو المنعم والمسخر الأعلى، ويريد منه أن يعترف بذلك ويُقدره فيطامن غروره تواضعاً لله جل شأنه ولمخلوقاته التى سخرها له.

فنجد أن الله تعالى قد أحل الزمان كله للإنسان يفعل فيه ما يشاء من أعمال الصيد والحرب ولكنه يُحرم عليه فيه أربعة أشهر - وهى الأشهر الحرم - ليرده لمن أباح له كل الزمان. كما سخر له المكان كله يفعل فيه ما يشاء من صيد وقتال ثم يحرم عليه بقعة منه وهو المسجد الحرام ليعوده على الإنضباط طاعة لأمر مولاه الذى أنعم عليه بكل المكان، وسيَّده على الجمادات يستخدمها ويحركها كيف يشاء فيبنى بها ويهدم. ثم طلب منه أن يُقبل الحجر الأسود ليطامن ما قد يعتريه من زهو وكبرياء فى كون الله، وكأنه يعلن خضوعه لمن أخضع له هذا الكون وسخره له. فها نحن نرى هذا السيد فى الكون لا يقبل الله منه النُسك القبول التام الحسن إلا إذا قبل الحجر الأسود أو حياه من بعيد، وهكذا ينقل الحق أعلى الأجناس إلى أدناها حتى نجد الناس تزدحم حول ذلك الحجر لتحيته، ومن لم يقبله يشعر أنه أفتقد شيئاً كثيراً، وهكذا نرى استطراقاً وسلوكاً من الخلق إلى باب الله.

فالإنسان المكرم الذى يظن أنه سيد على غيره يأتى إليه أمر فى الحج بتقبيل الحجر أو تحيته بالسلام، وهو أدنى الأجناس المسخرة له، وهذا نوعٌ من الكسر لغرور الإنسان.

وحتى لا يظن ظان أنها وثنية أو حجرية يأتى الأمر من الحق برجم حجر آخر فى نفس النسك، إذن الحجرية ليس لها أى ملحظ هنا. فنحن نجد حجراً يقدس وحجراً آخر يرجم. نجد حجراً يقبله الإنسان ويحرص على تحيته وحجراً آخر يزدريه ويحقره، وذلك يدل على رضوخ لإرادة الله وحده لأنه هو خالق الجميع، ومسخر كل المخلوقات فى الكون لخدمة الإنسان. فكان لزاماً على ذلكم الإنسان أن يمتثل لعظمة ذلك الخالق العظيم بالسمع والطاعة فى كل أوامره، وذلك هو منتهى اليقين، ولهذا نجد سيدنا عمر بن الخطاب ينفى عن تقبيل الحجر الأسود شبهة الوثنية ويعلن أنها فقط تعظيم لأمر الله سبحانه وتعالى فيقول موجهاً كلامه لهذا الحجر المقدس: والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك[1].

ولا ريب أن تعود الإنسان على احترام وتقدير الأجناس الأدنى منه والمسخرة له يجعله أكثر تقديراً لإخوانه فى الإنسانية، وأعمق احتراماً لهم ومحافظة على حقوقهم وهذا هو ما يريده الله تعالى، ويجب أن يسود ويهيمن على معاملات البشر.

ولكن ذلك لا يمنع أن يوجد بين البشر من لا يرضى إلا الظلم والعدوان فيأبى إلا الكبر والاختيال فى كون الله بغير حق، والاعتداء على حقوق خلقه، والتحكم فى مقومات حياتهم، ولذلك يحتفظ الحق تبارك وتعالى بالتحكم فى أهم تلك المقومات وأكثرها خطراً فى حياة البشر ولا يدعها نهباً لأولئك المعتدين المتطاولين على الخلق محافظة منه تعالى على حياة البشر واستبقاءً لحياتهم.

● **مقومات الحياة البشرية وقدرات البشر:**

ونحن إذا نظرنا إلى مقومات الحياة على الأرض نجدها منحصرة فى ثلاثة أشياء هى الهواء والماء والطعام وهى اللوازم الثلاثة لحياة الإنسان على الأرض، وقدرة الإنسان على احتمال افتقادها تتفاوت. فالإنسان بطبيعة خلقه لا يستطيع العيش بدون الهواء أكثر من دقيقة أو بضع دقائق على الأكثر ولهذا أخرج الهواء

---

(١) أنظر تفسير الشيخ محمد متولى الشعراوى لمناسك الحج.

من قدرة البشر، وشاء أن يكون هذا العنصر الخطير فى حياة البشر مباحا للناس جميعاً، ولا يستطيع أحدهم أن يُسيطر عليه أو يمنعه عنهم فيهلكهم. بل أخضعه لعدله وأتاحة للغنى والفقير والعظيم والحقير، والذى لا يملك من أسباب الدنيا شيء لذلك نجد البشر جميعاً يتنفسون بنفس السهولة دون أى عناء بل إن الهواء يصلهم إلى حيث هم وأينما كانوا بكل يسر وسهولة وهذا هو عدل الله ولا دخل للبشر فيه محافظة على حياتهم وأهم مقوماتها وهو الهواء.

ونأتى بعد ذلك إلى الماء وهو ما يستطيع الإنسان أن يعيش بدونه يوماً أو عدة أيام. فنجد أن القدرة على اختزانه قليلة والقدرة على منعه على البشر محدودة وإن كانت لها إمكانيات أكثر من الهواء. وهنا يتدخل ظلم الإنسان ولكن بقدر محدود جداً نظراً لأهمية الماء بالنسبة للحياة البشرية. ثم نأتى بعد ذلك إلى الطعام فنجد أن قدرة الإنسان على اختزانه ومنعه أكبر ولكن احتمال الإنسان لعدم تناوله أكثر من قدرته على تحمل افتقاد الهواء والماء لاسيما وأن الكمية التى يحتاج لها الجسم البشري من الطعام تعد قليلة نسبياً فهى كما وصفها رسول الله ﷺ لقيمات يقمن صلبه.

وهذه هى مقومات الحياة الثلاثة.. شيء لا يستغنى عنه الإنسان ولا يستطيع الحياة بدونه أبداً وهو الهواء نافذ فيه عدل الله ليحصل كل إنسان على حاجته منه دون عناء، وشيء يستطيع أن يستغنى عنه الإنسان يوماً أو يومين أو ثلاثة وهو الماء وهو متوافر للناس أيضاً، وشيء ثالث وهو الطعام تحكم فيه البشر أكثر ولكن احتمال الإنسان للعيش بدونه أكبر وهنا نرى عدالة الحق في توزيع مقومات الحياة على خلقه لضمان استمرار حياتهم ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠][1].

---

(١) وأنظر معجزة القرآن - محمد متولى الشعراوى جـ١.

● **القيمة تنبع من الغاية :**

وهكذا نجد أن قيمة الإنسان فى ذلك الوجود عظيمة عظم الغاية التى خلقه الله لإمضائها فى هذا الوجود وهى عبادة الله على صورة لا يشاركه فيها مخلوق آخر وهى العبادة بصفة الحب والاختيار. كما نجد أن الاعتداء على هذا المخلوق الفريد هو فى حد ذاته اعتداءً على إرادة الله التى أوجدته وأوكلت إليه خلافة الله فى أرضه لإعمارها على منهجه. فهو اعتداء يفوق فى خطره وعظم جرمه الإفساد فى الأرض لأنه اعتداء على غاية الوجود كله وخلاصته.

كما أن الاعتداء على الإنسان كما سنرى هو اعتداء على آية كبرى من آيات الله فى خلقه حيث ضمنها من الأسرار والعطاءات ما قد يقترب أو يتساوى مع عظيم صنع الله فى الكون كله.

وتحسب أنك جُرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

كما نلمس بوضوح مكانة ذلك المخلوق الفريد فى عالم بنى على الحق.

فالحق فى منهج الله أصيل فى بناء ذلك الوجود، وليس فلتة عابرة ولامصادفة غير مقصودة. فالله تعالى هو الحق ومن وجوده تعالى يستمد كل موجود وجوده ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ** ﴾ [لقمان: ٣٠].

وقد خلق الله ذلك الكون بالحق لا يلتبس بخلقه الباطل ﴿ **مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ** ﴾ [يونس: ٥] ومن ثم فلابد للحق أن يظهر ولابد للباطل أن يزهق ومهما تكن الظواهر غير هذا فإن مصيرها نحو تكشف صريح ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** ﴾ [الأنبياء: ١٨]، والخير والصلاح والإحسان أصيلة فى هذا الكون كالحق وباقية بقاءه فى الأرض ﴿ **كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ**

﴿ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧].

ولهذا فلاصلاح لهذه الأرض، ولا راحة لهذه البشرية، ولا طمانينة لهذا الإنسان، ولا استقامة لأموره ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة إلا بالرجوع إلى الله لتستقيم له الحياة كما استقامت لباقى المخلوقات.